القصص

قصة أندلسية واقعية

محمد الصغير *

للأستاذ على الطنطاوى

قال :

كنت يومئذ صغيراً ، لا أفقه شيئاً مما كان يجرى فى الخفاء ، ولكنى كنت أجد أبى — رحمه الله — يضطرب ويصفرّ لونه كلما عدت من المدرسة فتلوت عليه ما حفظت من (الكتاب المقدس) ، وأخبرته بما تعلمت من اللغة الاسبانية ، ثم يتركنى ويمضى إلى غرفته التى كانت فى أقصى الدار ، والتى لم يكن يأذن لأحد بالدنو من بابها ، فيلبث فيها ساعات طويلة ، لا أدرى ما يصنع فيها ، ثم يخرج منها محمرّ العينين ، كأنه قد بكى بكاء طويلاً ، ويبقى أياماً ينظر إلىّ بلهفة وحزن ، ويحرك شفتيه فعلّ من يهم بالكلام ، فاذا وقفت مصغياً اليه ولانى ظهره ، وانصرف عنى من غير أن يقول شيئاً — وكنت أجد أمى تشيّعنى كلما ذهبت إلى المدرسة حزينة دامعة العين ، وتقبلنى بشوق وحرقة ، ثم لا تشبع منى فتدعونى فتقبلنى مرة ثانية — ولا تفارقنى إلا باكية ، فأحس نهارى كله بحرارة دموعها على خدى ، فأعجب من بكائها ولا أعرف له سبباً ؛ ثم إذا عدت من المدرسة استقبلتنى بلهفة واشتياق ، كأنى كنت غائباً عنها عشرة أعوام — وكنت أرى والدىّ يبتعدان عنى ويتكلمان همساً بلغة غير اللغة الأسبانية ، لا أعرفها ولا أفهمها ، فاذا دنوت منهما قطعا الحديث وحوّلاه ، وأخذا يتكلمان بالاسبانية فأعجب وأتألم وأذهب أظنّ فى نفسى الظنون حتى إنى لأحسب أنى لست ابنهما ، وانى لقيط جاءا به من الطريق فيبرح بى الألم فآوى إلى ركن فى الدار منعزل فأبكى بكاء مراً — وتوالت علىّ الآلام فأورثتنى مزاجاً خاصاً يختلف عن مزاج الأطفال الذين كانوا فى مثل سنى ، فلم أكن أشاركهم فى شىء من لعبهم ولهوهم ، بل أعتزلهم وأذهب ، فأجلس وحيداً أضع رأسى بين كفى ، وأستغرق فى تفكيرى ، أحاول أن أجد حلاً لهذه المشكلات . . . حتى يجذبنى الخورى من قميصى لأذهب إلى الصلاة فى الكنيسة . . .

وولدت أمى مرة ؛ فلما بشرت أبى بأنها قد جاءت بصبى جميل ، لم يبتهج ولم تلحْ على شفتيه ابتسامة ، ولكنه قام يجر رجله حزيناً ملتاعاً ، فذهب إلى الخورى فدعاه ليعمد الطفل ، وأقبل يمشى وراءه وهو مطرق برأسه إلى الأرض وعلى وجهه علائم الحزن البرح واليأس القاتل ، حتى جاء به إلى الدار ودخل به على أمى . . . فرأيت وجهها يشحب شحوباً هائلاً ، وعينيها تشخصان ، ورأيتها تدفع إليه الطفل خائفة حذرة . . ثم تغمض عينيها ، فحرت فى تعليل هذه المظاهر ، وازددت ألماً على ألمى . .

حتى إذا كانت ليلة عيد الفصح ، وكانت غرناطة غارقة فى العطر والنور ، والحمراء تتلألأ بالشاعل والأضواء ، والصلبان تومض على شرفاتها ومآذنها ، دعانى أبى فى جوف الليل ، وأهل الدار كلهم نيام ، فقادنى صامتاً إلى غرفته ، إلى حرمه المقدّس ، فخفق قلبى خفوقاً شديداً ، واضطربت ، لكنى تماسكت وتجلدت ، فلما توسط بى الغرفة أحكم إغلاق الباب ، وراح يبحث عن السراج ، وبقيت واقفاً فى الظلام لحظات كانت أطول علىّ من أعوام ؛ ثم أشعل سراجاً صغيراً كان هناك ، فتلفت حولى فرأيت الغرفة خالية ليس فيها شىء مما كنت أتوقع رؤيته من العجائب ، وما فيها إلا بساط ، وكتاب موضوع على رفّ ،

* أخذنا فكرة هذه القصة من السطور الأولى من مقدمة كتاب (الأنوار النبوية فى آباء خير البرية) لسيدى محمد بن عبد الرفيع الأندلسى المتوفى بالمغرب سنة ١٠٥٢ ، وهو كتاب مخطوط ، وقد قرأنا هذه المقدمة فى الجزء الثانى فى الصفحة (٢٤) من كتاب (حاضر العالم الاسلامى ، طبع مصر ١٣٥٢)

وسيف معلق بالجدار ، فأجلسني على هذا البساط ، ولبث صامتاً ينظر إليّ نظرات غريبة ، اجتمعت عليّ هي ورهبة المكان ، وسكون الليل ، فشعرت كأني انفصلت عن الدنيا التي تركتها وراء هذا الباب ، وانتقلت إلى دنيا أخرى ، لا أستطيع وصف ما أحسست به منها . . . ثم أخذ أبي يديّ بيديه ، بحنو وعطف وقال لي بصوت خافت :

— يا بنيّ ! إنك الآن في العاشرة من عمرك ، وقد صرت رجلاً ، وإني سأطلعك على السر الذي طالما كتمته عنك . فهل تستطيع أن تحتفظ به في صدرك ، وتحبسه عن أمك وأهلك وأصحابك والناس أجمعين ؟ إن إشارة منك واحدة إلى هذا السر تعرض جسم أبيك إلى عذاب الجلادين من رجال « ديوان التفتيش »

فلما سمعت اسم ديوان التفتيش ارتجفت من مفرق رأسي الى أخمص قدمي ، وقد كنت صغيراً حقاً ، ولكني أعرف ما هو ديوان التفتيش ، وأرى ضحاياه كل يوم وأنا غاد الى المدرسة ورائح منها — فمن رجال يصلبون أو يحرقون ، ومن نساء يعلقن من شعورهن حتى يمتن ، أو تبقر بطونهن ، فسكت ولم أجب

— فقال لي أبي : مالك لا تجيب ؟ أتستطيع أن تكتم ما سأقوله لك ؟

— قلت له : نعم

— قال : تكتمه حتى عن أمك وأقرب الناس إليك ؟

— قلت : نعم

قال : — فاقترب مني . أرهف سمعك جيداً . فاني لا أقدر أن أرفع صوتي . أخشى أن تكون للحيطان آذان تسمعني فتشي بي الى ديوان التفتيش فيحرقني حياً ...

فاقتربت منه ، وقلت له :

— إني مصغ يا أبت

فأشار الى الكتاب الذي كان على الرف . وقال :

— أتعرف هذا الكتاب يا بني ؟

— قلت لا

— قال هذا كتاب الله

— قلت الكتاب المقدس الذي جاء به يسوع ابن الله ؟

فاضطرب وقال :

— كلا . هذا هو القرآن الذي أنزله الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . على أفضل مخلوقاته وسيد أنبيائه ، سيدنا محمد بن عبد الله النبي العربي صلى الله عليه وسلم

ففتحت عيني من الدهشة . ولم أكد أفهم شيئاً

— قال : هذا كتاب الاسلام ، الاسلام الذي بعث الله به محمداً الى الناس كافة .. فظهر هناك ... وراء البحار والبوادي ... في الصحراء البعيدة القاحلة ... في مكة ، في قوم بداة مختلفين مشركين جاهلين ، فهداهم به الى التوحيد وأعطاهم به الاتحاد والقوة والعلم والحضارة ، فخرجوا يفتحون به الشرق والمغرب ، حتى وصلوا إلى هذه الجزيرة ، الى أسبانيا ، وكان ملكها جباراً عانياً ، وحكومتها ظالمة غاشمة ، وشعبها مظلوماً فقيراً جاهلاً متأخراً ، فقتلوا الملك الجبار ، وأزالوا الحكومة الظالمة ، وملكوا الأمر في أسبانيا ، فعدلوا بين الناس وأحسنوا اليهم وأمنوهم على أرواحهم وأموالهم ، ولبثوا فيها ثمانمائة سنة . . . ثمانمائة سنة جعلوها فيها أرقى وأجمل بلاد الدنيا

نعم يا بني نحن العرب المسلمين ...

فلم أملك لساني من الدهشة والعجب والخوف ، وصحت به :

— ما ذا ؟ نحن ؟ ... العرب المسلمين

— قال : نعم يابني . هذا هو السر الذي سأفضي به اليك ... نعم . نحن ... نحن أصحاب هذه البلاد ، نحن بنينا هذه القصور التي كانت لنا فصارت لعدونا ؛ نحن رفعنا هذه المآذن التي كان يرن فيها صوت المؤذن ، فصار يقرع فيها الناقوس ؛ نحن أنشأنا هذه المساجد التي كان يقوم فيها المسلمون صفاً بين يدي الله ، وأمامهم الأئمة يتلون في المحاريب كلام الله فصارت كنائس يقوم فيها القسس والرهبان يرتلون فيها الانجيل ...

نعم يا بني ... نحن العرب المسلمين ، لنا في كل بقعة من بقاع أسبانيا أثر ، وتحت كل شبر منها رفات جد من أجدادنا ، أو شهيد من شهدائنا . نعم ... نحن بنينا هذه المدن ، نحن أنشأنا هذه الجسور ، نحن مهدنا هذه الطرق ، نحن شققنا هذه الترع ، نحن زرعنا هذه الأشجار ...

ولكن منذ أربعين سنة ... أسامع أنت ؟ منذ أربعين سنة خدع الملك البائس ، أبو عبد الله الصغير آخر ملوكنا في هذه الديار بوعود الاسبان وعهودهم فسلمهم مفاتيح غرناطة ، وأباحهم حمى أمته ومدافن أجداده ، وأخذ طريقه إلى بر المغرب ، ليموت

هناك وحيداً فريداً شريداً طريداً ، وكانوا قد تعهدوا لنا بالحرية والعدل والاستقلال . فلما ملكوا خانوا عهودهم كلها ، فأنشأوا ديوان التفتيش ، فأدخلنا فى النصرانية قسراً ، وأجبرنا على ترك لغتنا إجبارا ، وأخذ منا أولادنا لينشئهم على النصرانية . فذلك سر ما ترى من استخفائنا فى العبادة ، وحزننا على ما نرى من امتهان ديننا ، وتكفير أولادنا

أربعون سنة يا بنى ونحن صابرون على هذا العذاب الذى لا تحمله جلاميد الصخر ننتظر فرج الله . لا نيأس لأن اليأس محرم فى ديننا ، دين القوة والصبر والجهاد

هذا هو السر يابنى فاكتمه واعلم أن حياة أبيك معلقة بشفتيك ؛ ولست والله أخشى الموت ، أو أكره لقاء الله ، ولكنى أحب أن أبقى حتى أعلمك لغتك ودينك ، وأنقذك من ظلام الكفر إلى نور الايمان . فقم الآن الى فراشك يا بنى

* * *

صرت من بعد كلما رأيت شرف الحمراء ، أو مآذن غرناطة ، تعرونى هزة عنيفة ، وأحس بالشوق والحزن والبغض والحب يغمر فؤادى ؛ وكثيراً ماذهلت عن نفسى ساعات طويلة ، فاذا تنبهت رأيتنى أطوف بالحمراء أخاطبها وأعاتبها وأقول لها :

أيتها الحمراء . . . أيتها الحبيبة الهاجرة ، أنسيت بناتك وأصحابك الذين غذوك بأرواحهم ومهجهم ، وسقوك دماءهم ودموعهم ، فتجاهلت عهدهم ، وأنكرت ودهم . أنسيت الملوك الصيد الذين كانوا يجولون فى أبهائك ، ويتكئون على أساطينك ، ويفيضون عليك ما شئت من المجد والجلال والأبهة والجمال ، أولئك الأعزة الكرام الذين إن قالوا أصغت الدنيا ، وإن أمروا لبى الدهر . أألفت النواقيس بعد الأذان ، أرضيت بعد الأئمة بالرهبان !

ثم أخاف أن يسمعنى بعض جواسيس الديوان ، فأسرع الكرة إلى الدار لأحفظ درس العربية الذى كان يلقيه علىّ أبى ، وكأنى أراه الآن يأمرنى أن أكتب له الحرف الأعجمى فيكتب لى حذاءه الحرف العربى ، ويقول لى : هذه حروفنا ، ويعلمنى النطق بها ورسمها ، ثم يلقى علىّ درس الدين ، ويعلمنى الوضوء والصلاة لأقوم وراءه وهو يصلى خفية فى هذه الغرفة الرهيبة

وكان الخوف من أن أزل فأفشى السر ، لا يفارقه أبداً ، وكان يمتحننى فيدس أمى إلىّ فتسألنى :

— ماذا يعلمك أبوك ؟

— فأقول : لا شىء

— فتقول : إن عندى نبأ مما يعلمك ، فلا تكتمه عنى

— فأقول : إنه لا يعلمنى شيئاً

حتى أتقنت العربية ، وفهمت القرآن ، وعرفت قواعد الدين ، فمرّنى بأخ له فى الله ، فكنا نجتمع نحن الثلاثة على عبادتنا وقرآننا

* * *

واشتدت بعد ذلك قسوة ديوان التفتيش ، وزاد فى تنكيله بالبقية الباقية من العرب ، فلم يكن يمضى يوم لا نرى فيه عشرين أو ثلاثين مصلوباً ، أو محرقاً بالنار حياً ؛ ولا يمضى يوم لا نسمع فيه بالمئات يعذبون أشد العذاب وأفظعه ، فتقلع أظافرهم وهم يرون ذلك بأعينهم ، ويسقون الماء حتى تنقطع أنفاسهم ، وتكوى أرجلهم وجنوبهم بالنار ، وتقطع أصابعهم وتشوى وتوضع فى أفواههم ، ويجلدون حتى يتناثر لحمهم ...

واستمر ذلك مدة طويلة ، فقال لى أبى ذات يوم : إنى أحس يا بنى كأن أجلى قد دنا ، وإنى لأهوى الشهادة على أيدى هؤلاء ، لعل الله يرزقنى الجنة ، فأفوز فوزا عظيما ؛ ولم يبق لى مأرب فى الدنيا بعد أن أخرجتك من ظلمة الكفر وحللتك الأمانة الكبرى التى كنت أهوى تحت أثقالها ، فاذا أصابنى أمر فأطع عمك هذا ولا تخالفه فى شىء

* * *

ومرت على ذلك أيام . وكانت ليلة سوداء من ليالى السرار ، وإذا بعمى هذا يدعونى ويأمرنى أن أذهب معه ، فقد يسر الله لنا سبيل الفرار إلى عدوة المغرب ، بلد المسلمين ؛ فأقول له : وأبى وأمى ؟ . . .

فيعنف علىّ ويشدنى من يدى ، ويقول لى : ألم يأمرك أبوك بطاعتى ؟

فأمضى معه صاغراً كارهاً ، حتى إذا ابتعدنا عن المدينة وشملنا الظلام ، قال لى :

— اصبر يا بنىّ . . . فقد كتب الله لوالديك المؤمنين السعادة على يد ديوان التفتيش . . . .

(دمشق) علي الطنطاوي